مقابر الأحياء

فى المستوقد

للا ستاذ م. محمد عبد الكريم

انبلج صبح يوم الجمعة الماضى، وبدأت الحياة تدب فى أرجاء الحى. وقفت فى شرفة الدار استقبل اليوم واجتلى طلعته. أشاهد نور الاشراق تكشف عن كون صوره الخالق فأبدعه. أسائل النفس: ترى ماعسى أن ينال الانسان من نعم أوفى وأعظم مما حباه الله به، وما لنا نشكو وقد أتانا من كل ما سألناه ....

وفيما أنا سابح فى تفكيرى اذ طرق الباب طارق قلت. من؟ قال: (الزبال). فتحت للرجل فسارع الى وعاء القمامة يفرغ ما به فى زنبيله واستدر حاله إشفاق فقلت "كل يوم فى هذا يامنصور؟ اليوم عطلة ياشيخ .. قال: لمن؟ قلت: للناس كلهم .. فأجاب بصوت خافت: إلا الزبالين".

مضى الرجل وعدت إلى الشرفة أتأمله وهو يتعثر فى مشيته وقد بدا ثوبه الخلق بين حلل السائرين كما يبدو الكوخ الحقير بين قصور الموسرين .

وغاب منصور عن النظر ولكن مشهده لم يبرح مخيلتى حتى أيقظ رغبة طالما جاشت بها النفس، هى دراسة شؤون البائسين من مواطنينا عن كثب والكشف عن أدوائهم والعرض لأسباب إصلاح حالتهم .

وسارعت الى المشجب فارتديت سترتى وخرجت حتى إذا بلغت ظاهر الدار استوقفنى أخى الصغير يسألنى : أين سأمضى يومى، قلت فى المستوقد. وكانت إجابة غريبة أضحكت الفتى كثيرا ...

وحملتنى السيارة العامة الى قلب بولاق ، حتى إذا بلغت حى الجامع المعلق ترجلت ويممت شطر مستوقد كبير كنت أمر به أيام أن كانت لنا مصالح بذلك الحى .

وبدت طلائع المستوقد عن بعد: فهذه عربات نقل الفول مصفوفة على جانب، وهؤلاء العمال يتعاونون على نقل ما أفرغته لهم عربة النظافة العامة الى داخل المستوقد .

حييت القوم حين بلغتهم ، فردوا التحية ، حتى اذا رأونى قد توسطتهم ألقوا بالفؤوس والزنابيل ، ونظروا الىّ نظرة تساؤل وارتياب ، ولم أشأ أن أطيل ريثهم ، فبادرت بالافصاح عن غايتى ، وصحبت الريس الى داخل المستوقد .

المستوقد وعمله :

وقد يكون من المناسب قبل أن أعرض لحال « الزبالين » كما رأيته أن أذكر للقارئ شيئا عن المستوقد و إن كان أمره لا يخفى عن البعض ، فهو فضاء مستور يجاور حمام السوق ويشتمل على بناء صغير به تنور كبير يعلوه خزان ماء ، وتجاور التنور هوة عميقة ترص فيها قدور الفول والقمح والذرة لطهيها . وعمل المستوقد الرئيسى اعداد الماء الساخن لحمام السوق ، وكان الماء الى عهد قريب يرفع بالساقية من بئر فى كل مستوقد ، غير أن النظام الصحى قضى بردم الآبار واستعمال الماء المكرر وحده .

وطهى الفول والحبوب عمل آخر له أهميته وهو مورد الرزق لجميع من فى المستوقد .

ويشغل فضاء المستوقد بالقمامة التى تفرز به ، اذ يوضع الوقود فى جانب والصفيح التالف فى جانب آخر ، كما تجمع العظام وحدها لبيعها لمن يتجرون بها .

أما الرماد الأسود المتخلف من الحريق وهو المعروف "بالأسرمل" فيكوم وحده ليوزع على الأهلين لاستخدامه فى البناء وفى الزراعة .

الحياة فى المستوقد :

لا أحسبنى قد أخطأت التقدير حين وضعت فئة "الزبالين" فى رأس قائمة البائسين المفتقرين الى الإصلاح ، وحسبى أن أعرض للحياة اليومية فى المستوقد ليقف القارئ على حقيقة حال هذه الفئة البائسة .

فالزبالون أو حارقو القمامة طائفة من العمال يفدون من الواحات ، وقد امتازت الواحات الداخلية بأنها مصدرهم الأكبر ، وهم يهبطون على المستوقدات فى العواصم تاركين نساءهم وأولادهم بواحاتهم .

وليس اختيارهم لهذا العمل الشاق إلا وليد الضرورة ، فهم يجهلون الزراعة ولا يحسنون صناعة ، فلا مجال للعمل فى غير القمامة .

وليس للزبال أجر أو راتب معلوم، فهو لا يتقاضى من صاحب الحمام الذى يتبعه المستوقد شيئا لقاء تسخينه الماء اللازم للحمام . انما يكتفى صاحب العمل بمنحه جزءا من أجور طهى القدور ، قدور الفول المدمس وغيره . ويتراوح ما يناله الزبال من هذا بين قرشين وخمسة قروش فى اليوم .

ولعلنا ندرك مبلغ ما تقاسيه هذه الفئة من ضيق اذا ذكرنا أن شطرا كبيرا من هذا الأجر يبعث به إلى الواحات لينفق على أسرة الرجل من نساء وأولاد .

ويقوم طعام الزبال على الشاى الأسود الذى توارث إدمانه والذى ينفق فيه جانبا كبيرا من دخله الضئيل . وقد شكا إلىّ الزبالون مر الشكوى من ارتفاع ثمن السكر والشاى ، وقال لى أحدهم " أعطونا شايا وخبزا وجلبابا ولسنا نطلب بعد ذلك أجرا إلا العناية بأهلينا فى الواحات" .

ويتناول الزبال أيضا الفول المدمس وبعض الجبن أما اللحم فلا يراه إلا فى المواسم ، وهم يشترونه من باعة متجولين ومن النوع المعروف بلحم الرأس ورطله بسبعة مليمات ونصف المليم .

الحالة الصحية فى المستوقد :

على أن سوء الحالة المادية لهذه الفئة يتضاءل إذا قيس بحالتهم الصحية ، ويكفى أن نعلم أن أكثر هؤلاء المساكين يقيمون الليل والنهار فى هذه البؤرة ، فمن تسعة عشر درست حالهم يبيت عشرة فى المستوقد على القمامة الجافة فى عربات نقل الفول ، ويشترك أربعة فى حجرة واحدة أجرتها عشرون قرشا والخمسة الباقون يقيمون مع أسرهم فى مساكن خاصة ، وقد أتى ثلاثة منهم بزوجاتهم من الواحات والاثنان تزوجا من واحيتين فى مصر .

ولا أرانى فى حاجة إلى الإشارة إلى فعل القمامة فى صحة هؤلاء البائسين ، فللقارئ أن يتصور أثر روائح القمامة فى شخص يتخذها فرشا وسريرا ، وهو طول يومه بين هذه الجراثيم وفى دخان التنور . وقد بدا الأثر واضحا فى أعينهم التى لا تشع إلا نورا ضئيلا جعلهم أقرب إلى العميان منهم إلى المبصرين .

أما أجسامهم فضامرة هزيلة من أثر العمل المضنى والهواء الفاسد والغذاء السيئ .

وقد شاهدت القراع ظاهرا فى رءوس أربعة منهم ، ولا عجب فإن وسادة من قمامة كافية لنزع جلدة الرأس لا الشعر وحده .

الأمية والجهل :

لم أجد بين من شاهدتهم واحدا يعرف الألف والباء، فكلهم أميون، وهم فوق ذلك جاهلون بكل ما فى الوجود. وقد استطلعت رأى أحدهم فى الحرب فقال "ربنا ينصر السنوسى..." قلت وما شأن السنوسى قال " مش هوّه اللى بيحارب فى الكفار ... " .

وللمتزوجين منهم أطفال يقضون اليوم بين البيت والمستوقد، وحالتهم لا تكاد تختلف عن حالة آبائهم فى شىء .

فى أوقات الفراغ :

تزيد ساعات العمل فى المستوقد على عشر ساعات . وقد لاحظت أن بعض الزبالين يستعينون على العيش بموارد أخرى، فمنهم من يمر على المنازل المجاورة يجمع منها القمامة نظير جعل صغير يتقاضاه كل شهر، ومنهم من يجوب الشوارع يقدور الفول والبليلة ، وقد تغريه هذه عن مشاركة اخوانه فى عملهم فيتخذ بيع الفول مهنة له .

على أن الزبالين رغم ما يلاقونه من نصب، يعنون كثيرا باللهو والسمر فى أوقات الفراغ وهم لا يغشون المقاهى وإنما يقضون مساءهم فى المستوقد وعلى الوقود والتراب الأسود منتظمين فى حلقة كبيرة يستمعون إلى مزمار الغاب وهو شبيه بالأرغول إلا أنه أقصر منه طولا ، حتى إذا انتهى الزمار هلل الحاضرون من رجال وأولاد وصفقوا هاتفين " هيه ... هيه ... هيه " ويظلون يرددون هذه الكلمة وقتا طويلا .

ويعد « رئيس الجورة الشاى» للمجتمعين ، ويقدمه لهم فى براد كبير وأكواب حتى إذا نفد السائل صب على نفايا الشاى ماء من جديد وأعيد غليه وتقديمه، وبهذه الطريقة يكفى القليل من الشاى الحفل كله .

وفى فجر أيام الجمعة بوجه خاص يقصد الزبالون إلى الحمام الذى يغذونه بالماء الساخن حيث يذيبون فى المغطس طبقات الأقذار والجراثيم العالقة باجسامهم . ولا أود التعرض الآن للحمام والتحدث عما فيه فسوف أفرد له بحثا خاصا فى هذا المكان

العلاج كما أراه :

أرى لمشكلة المستوقدات حلين : الأول حاسم ، والآخر مؤقت يخفف البلوى ولكن لا يزيلها .

فالعلاج الحاسم هو إغلاق المستوقدات والحمامات فى كل مكان واتباع النظم الحديثة التى تتبع فى كل بلاد العالم المتمدين للخلاص من القمامة بتحويلها الى سماد عضوى بواسطة مواقد ميكانيكية تقام خارج المدن .

وليس هذا العمل غريبا عن بلادنا ، فلدينا موقد ميكانيكى أقامته مصلحة التنظيم بجهة ابن السعود، وهو يؤدى خدمة كبيرة، إذ يمد المذبح بالماء الساخن ويحول الوقود بعد حرقه إلى سماد عضوى تشتريه شركة السماد بمبلغ كبير ، ولسنا ندرى لم لا تعمم هذه المواقد فى كل مكان ونريح أنفسنا ونريح المشتغلين بهذا العمل من شره وضرره .

ولكى لا يكون فى هذا العلاج حرمان لطائفة الزبالين من مورد رزقهم نرى أن يقصر العمل فى المستوقدات الميكانيكية على الزبالين وحدهم ، ومن زاد على الحاجة تعينه مصلحة التنظيم فيما يخلو لديها من أعمال الكنس والرش .

وإلى أن تقوم الحكومة بهذا العمل أو تسنده إلى شركة تؤلف لهذه الغاية نرى :

أولا — أن يمنع المبيت فى المستوقد منعا باتا .

ثانيا — أن يكون تفريغ عربات النظافة العامة فى داخل المستوقد لا فى عرض الطريق كما رأيت فى مستوقدى الواسطى والجامع المعلق . وإذا كان المدخل لا يتسع للعربة فتكلف وزارة الأوقاف ، وهى التى تضع يدها على جميع المستوقدات ، بتوسيع المداخل .

ثالثا — أن تعين الحكومة طائفة الزبالين ماديا بأن تدفع لهم جعلا معينا عن كل عربة من عربات النظافة التى يكلفون بحرقها لما فى عملهم هذا من خدمة للصلحة العامة .

وأخيرا ، أن تولى الحكومة الواحات الداخلة شيئا من العناية بتنمية موارد الرزق فيها ، لأن نضوب هذه الموارد هو سبب هجرة هؤلاء المساكين والتجائهم إلى عواصم القطر .

وبعد، فهذا موطن من مواطن الضعف فى بنياننا الاجتماعى نصوره للناس، وكل ما نرجوه أن تنال هذه الفئة البائسة من أبناء الأمة العناية الواجبة وأن تمتد يد الاصلاح إلى المستوقد فتزيله أو تنظمه تنظيما يق صحتنا ويليق بكرامتنا .

م. محمد عبد الكريم